كان ما كان

تأليف الأستاذ مخائيل نعيمة

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

كان ما كان ... ألا إنها كلمة سحرية تفيض بالذكريات والأحلام ، وتفتح على النفس أفاقا من الماضي ، وما أحب الماضي إلى النفس وإن كان كله الشقاء ! ولعل هذا المعنى هو الذي لحظه الأديب اللبناني الأستاذ مخائيل نعيمه في وضع هذه الكلمة عنواناً لمجموعة من قصصه ، وهي مجموعة تشتمل على ست قصص وفصل من رواية مسرحية اسمها « جمعية الموتى » كان الأستاذ قد كتبها عن الجماعة اللبنانية إبان الحرب . ونعيمه لاشك أديب قصاص ، عنده طبيعة فنية ، وله في فنه ميزات ومواهب ، وهو في قصصه يحيا حياة روحية نبيلة كلها صفاء وتصوف ، فعنده « أن الفطرة حقيقة صافية ، والمدنية رياء موشى » وهو « يحب الروح النظيفة في جسم قذر ، عن الروح القذرة في جسم نظيف » ومن رأيه « أن الأرض روح طاهرة في جسم طاهر لا تساد ولا تستعبد ، فهي ميزان العدل الإلهي ، ولذلك لا تخجل من أن تنبت الوردة والشوكة والقمحة » ، وإنه لينظر إلى سبل الحياة في الشرق والغرب ، فيرى « الشرق يسير إلى الهجة ومركبته قلبه ، وجياده عواطفه وأفكاره ، وأعنته إيمانه وتقاليده المتصلة بالآزال ، بينما الغرب يسير في مركبة روحها البخار أو الكهرباء ، وعضلاتها لوالب ودواليب من حديد وفولاذ ، وأعنتها ادعاؤه واعتداده بنفسه » . ومع أن الغرب يلتفت إلى الشرق هازئاً ، والشرق يبهره ما يرى فيقر للغرب بالمجد ، فان نعيمة يرفع الشرق في روحانيته الصافية ، على الغرب في ماديته اللوثة ؛ وهو يأسف على الشرق إذ « يطرح مركبته ، ويبيع روحه ، ليحصل على مركبة كمركبة جاره » ، لأن الحياة المادية في الواقع « حياة مقنعة » كلها زحمة باطلة ، وجلبة فارغة ، وما الانسان في وسط هذه الجلبة إلا « كالهر يلحس البرد فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلاً أنه دمه ... »

ونعيمة أيضاً رجل باحث ، يعاني النقد والدراسة التحليلية ، وله « سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها » . ولا شك أن القصاص في حاجة إلى مواهب الباحث ، من دقة الملاحظة ، وصواب الفكر ، وحسن التقدير ؛ ولكن ليس من الصواب أن يفنى شخص القصاص في شخص الباحث ، حتى لا يضعف النهج القصصي في القصة كما يلاحظ في بعض قصص نعيمة ؛ فهو يهتم بأن يقول لك كل شيء في نفسه ، ويعنيه كثيراً أن يشرح كل شيء يعترضه ؛ ومن ثم فهو يستطرد كثيراً ويخرج بك إلى كل ناحية تتصل بالحديث ، ومن ثم كانت القصة عنده فكرة قويمة ، وحكمة عالية ، وبحثاً اجتماعياً كاملا ، ولكنها ليست على ما يجب من الاستواء الفني والاتساق القصصي ، فأنت تقرأها وكأنك تقرأ مقالا ممتعاً ، أو بحثاً ضافياً ؛ ولقد تعمد إلى بعض أجزائها بالحذف فما يضير ذلك ، ولا هو يقطع صلة الحوادث في القصة ؛ ولقد تجده يطيل كثيراً في التحليل النفسي للأشخاص إطالة قد تتحملها القصة الطويلة ، ولكنها لا تليق بالقصة القصيرة . وإليك مثلاً : تلك القصة التي أسماها « ساعة الكوكو » والتي صدر بها الكتاب ، فان نعيمة قد حشاها بكثير من الحكم والمواعظ ، ونقل فيها كلاماً طويلا من كلام « بو معروف » وعرض فيها لشخصية « خطار » فحللها تحليلا

نفسانياً دقيقاً صور فيه كل شيء حتى الخواطر والأحاسيس ، وساق كلاماً عن الشرق والغرب ، والمادية والروحية ، ولكنه ساق كل ذلك مساقاً إن اغتبط به فكر الباحث فلن يرتضيه تقدير القصاص ، لأن القصة ليست خطاباً يلقى أو حكاية تروى ، ولكنها حدود مرسومة ، وأبعاد مقدرة ، وحبكة قوية فى البدء والنهاية ، وخطة هى طبيعة الحياة ومظهر الواقع ؛ وبالجملة فهى قطعة فنية مستوية لا استطراد فيها ولا زوغان . ولو أن نعيمة راعى ذلك فى قصصه لكان من غير شك سباق الحلبة وحامل لواء القوم فى القصة

أما أسلوب المؤلف فأسلوب سهل مرسل ، يريده نعيمة على أن يكون أداة لإفهام القارىء فحسب . ولقد يهمل حق البيان واللغة في بعض الأحيان ، فيقدم حيث يجب التأخير ، ويحذف فى مقام الذكر ، ويرجع بالضمير إلى غير ما هو له ، كأن يقول : « ولا يزال نحو المائة منهم ينتظرون الدخول وراء السور » يريد ولا يزال نحو المائة منهم وراء السور ينتظرون الدخول . وكأن يقول : « لكنهم يبكون كلاماً ، وينوحون من قلوب ضاحكة وأجواف مفعمة » يريد أن بكاءهم لا حزن فيه وأنهم ينوحون وأجوافهم ممتلئة « بالسرور » ، ولكن العبارة لا تفى بما يريد ، لما فى صدرها من الخطأ اللغوى ، ولما في عجزها من القصور . وكأن يقول فى بعض تشبيهاته : « فكأن دماغى قد تحول إلى مسحوق دقيق ذرته يد خفية فى هاوية تلبدت بدخان » وهذا تشبيه لا يسوغه الذوق البيانى

على أننا لو تجاوزنا عن مثل هذا فما يصح أن نتجاوز عن حق اللغة والنحو فى مثل قوله : « ويلتقى الأخ أخاه » وقوله : « لنشاركه بالفرح » وقوله : « ولا يلعب بالقمار » وقوله : « كانت تحوى على صفات » وقوله : « فلنباشر يفحصهم » وقوله : « وذقنك المستطيلة وأحنا كك النافرة » إلى آخر ما هنالك من التعابير التى لا أحسب أن نعيمة الناقد يرضاها من غيره . وهل من اللائق أن تكون الفكرة من الذهب وأن يكون لبوسها من الخشب ؟ !

ثم هناك هنوات طفيفة كأن يقول (ص ٥٧) واختلت مع جميل فى مخدعها ، وسياق الكلام يقضي أنها اختلت مع عزيز وما أحسب ذلك إلا سبق قلم

وفى قصة الكوكو (ص ٨) يقول : فى حقيبتى رسالة تسلمتها فى أيار سنة ١٩٢٢ والذى فى ذيل القصة أنها كتبت بتاريخ سنة ١٩١٥ ولعل هذا من تحريف الطابع

أما بعد ، فقد كانت فترات طيبة تلك التى قضيتها في قراءة « كان ما كان » ، وما أبالغ إذا قلت إن نعيمة قد غمرني بفيض من الفكرة « الروحية البحتة » التى يخدمها ويخلص لها فى قصصه . وإنها لفكرة سامية ما أحوج الناس إليها وقد جرفتهم أوضار المادة الفاسدة ، ولكن من لها بأمثال نعيمة فى روحانيته وإخلاصه ؟

محمد فهمى عبد اللطيف